إعجاز القرآن لابن كمال باشا

الدكتور عادل الغرياني

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net
شبكة الألوكة

إعجاز القرآن لابن كمال باشا

الدكتور عادل الغرياني

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، أما بعد:

ففي هذه الرسالة الصغيرة، نجد الشيخ رحمه الله تعالى يرد على دقائق الأمور، ويلحظ من ثنايا الكلمات ما يجعل العقل يثور، فيرد كلام البيضاوي وينقح للتفتازاني، ويشد على الإيجي في مواقفه، وينقل للسكاكي في مفتاحه، بل يصلح المفتاح وأحيانًا يغيره، ويدافع عن كلام الله الفتاح، ويقف مع الجرجاني يرد كلام القوم الذين صرفوا عقولهم مع الصرفة، وينادي بأعلى صوته أن الإعجاز في بلاغة الكلام ونظمه ورصفه وأسلوبه الذي بهر العرب الذين هم أرباب الفصاحة والبيان، رحِم الله ابن كمال باشا لِما أسداه للمكتبة الإسلامية.

كتبه، عادل غرياني رحيم.

عملي في هذا المخطوط:

ــ حققت المخطوط وخرجت الآيات والأحاديث.

ــ عزوت الأقوال لقائليها.

ــ تكلمت عن مرجع القول في إعجاز القرآن.

ــ ذكرت بعض جهود السابقين في مجال الإعجاز.

مرجع الإعجاز في القرآن [١]:

١- القول الأول: أنَّ إعجازه بالصَّرْفة، وهو أنَّ الله صرف العرب عن معارضة القرآن، وسلَب عقولهم، وكان مقدورًا لهم، لكن منعهم أمر خارجي فصار كسائر المعجزات، وهذا قول النَّظَّام[٢].

٢- القول الثاني: أن وجه الإعجاز راجع إلى ما فيه من الإخبار عن الغيوب المستقبلة، ولم يكن ذلك من شأن العرب؛ كقوله تعالى - في قصة أهل بدر -: ﴿ سيهزم الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴾ [القمر ٤٥]، وقوله:

---

[١] ذكر العلماء وجوهًا كثيرة يرجع إليها الإعجاز، أوصلها بعضهم إلى ثمانين وجهًا، بل قال السيوطي في معترك الأقران (١/٥): والصواب أنه لا نهاية لوجوه إعجازه.

[٢] ينظر: مفتاح العلوم (٥١٢)، والبرهان للزركشي (٢/٢٢٦)، والإتقان (٢/٢٤١)، والزيادة والإحسان (٦/٣٨٦)، وممن قال بالصرفة جماعة من العلماء؛ منهم: أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (ت: ٣٨٤هـ)، وعلي بن محمد بن حبيب الماوردي (ت: ٤٥٠هـ)، وعلي بن أحمد بن حزم الأندلسي (ت: ٤٥٦هـ)، والحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي (ت: ٤٥٨هـ)، وابن سنان الخفاجي (ت: ٤٦٦هـ)، وأبو القاسم الحسين محمد الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ)، وكما قال النيسابوري في باهر البرهان في معاني مشكلات القرآن٢/ ٧٢٣، والصرفة مسألة كثيرة النظائر، مفتنة الشعب.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

﴿ الم * غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ [الروم ١-٣]، وغير ذلك مما أخبر به بأنَّه سيقع فوقع[٣].

٣- القول الثالث: أنَّ الإعجاز يرجع إلى ما تضمَّن مِن إخباره عن قصص الأولين وسائر المتقدِّمين حكايةَ مَن شاهدها وحضرها؛ قال تعالى: ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴾ [هود ٤٩] [٤].

٤- القول الرابع: أنَّ الإعجاز يرجع إلى ما تضمَّن مِن إخباره عن الضمائر من غير أن يظهر ذلك منهم بقول أو فعل؛ قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ ﴾ [المجادلة ٨] [٥].

٥- القول الخامس: أنَّ وجه الإعجاز راجع إلى التأليف الخاصِّ به لا مطلق التأليف، وهو بأنْ اعتدلت مفرداته تركيبًا وزِنَةً، وعَلَت مركَّباته معنى، بأن يوقع كل فنٍّ في مرتبته العليا في اللفظ والمعنى، اختاره ابن الزملكاني[٦]،[٧].

٦- القول السادس: أن التحدي إنَّما وقع بنظمه وصحَّة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه، ووجه إعجازه: أنَّ الله تعالى قد أحاط بكلِّ شيء علمًا، وأحاط بالكلام كلِّه علمًا، فإذا ترتَّبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أيُّ لفظة تصلح أن تلي الأولى، وتبيُّن المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، وهذا اختيار ابن عطية، ونسبه إلى الجمهور[٨].

٧- القول السابع: أن وجه الإعجاز يرجع إلى الفصاحة وغرابة الأسلوب والسلامة من جميع العيوب، وغير ذلك مقترنًا بالتحدي، اختاره فخر الدين الرازي [٩].

---

[٣] ينظر: إعجاز القرآن للباقلاني (ص٣٣)، والمحرر الوجيز (٥٢/١)، والبرهان للزركشي (٢٢٨/٢)، والإتقان (٢٤٢/٢)، والزيادة والإحسان (٣٨٨/٦)، والفصل في الملل (١١/٣).

[٤] ينظر: إعجاز القرآن للباقلاني (ص٣٤)، والنكت والعيون (٣٢/١)، والبرهان للزركشي (٢٢٨/٢)، والإتقان (٢٤٢/٢)، والزيادة والإحسان (٣٨٨/٦).

[٥] ينظر: النكت والعيون (٣٢/١)، والبرهان للزركشي (٢٢٨/٢)، والإتقان (٢٤٢/٢)، والزيادة والإحسان (٣٨٨/٦).

[٦] هو عبدالواحد بن عبدالكريم بن خلف الأنصاري الزملكاني، المشهور بابن خطيب زملكان، كان فاضلًا، إمامًا في علم المعاني والأدب والبيان، من مصنفاته: البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، والمجيد في إعجاز القرآن، والمنهج المفيد في أحكام التوكيد، مات سنة (٦٥١هـ)؛ ينظر: طبقات الشافعية للإسنوي (٣١٠/١)، وشذرات الذهب (٤٣٢/٧).

[٧] ينظر: المجيد في إعجاز القرآن للزملكاني، وذكره الزركشي عنه في البرهان (٢٢٧/٢)، وكذا السيوطي في الإتقان (٢٤٣/٢).

[٨] ينظر: المحرر الوجيز (٥٢/١)، ونقله الزركشي عنه في البرهان (٢٢٩/٢)، وكذا السيوطي في الإتقان (٢٤٣/٢).

[٩] ينظر: التفسير الكبير (١٠٦/٢)، وذكره الزركشي عنه في البرهان (٢٣٠/٢)، وكذا السيوطي في الإتقان (٢٤٣/٢).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

٨- القول الثامن: أن وجه الإعجاز يرجع إلى ما فيه من عجيب تأليفٍ وبديع نظمٍ لا منتهى له، وهو شامل للقرآن كلِّه، لا تفاوت ولا تباين معيب فيه، فهو خارج عن جميع وجوه النظم المعتاد في كلام العرب، وهذا اختيار القاضي أبو بكر الباقلاني [١٠].

٩- القول التاسع: أنَّ وجه الإعجاز هو ما يجده المتمعِّن أمرًا من جنس البلاغة والفصاحة، مما لا يمكن التعبير عنه، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها، وكالملاحة، قاله السكاكي [١١].

١٠- القول العاشر: وجه الإعجاز في القرآن؛ من حيث استمرار الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها في جميعه، استمرارًا لا توجد له فترة، ولا يقدر عليه أحد من البشر، قال به حازم القرطاجني [١٢]، [١٣].

١١- القول الحادي عشر: أنَّ وجه الإعجاز فيه كونه بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف، مضمنًا أصحَّ المعاني، وكذا أيضًا له وجه آخر في إعجازه: وهو صنيعه في القلوب، وتأثيره في النفوس، ما لا يحصل في غيره، وهذا ما قاله الخطابي [١٤]، [١٥].

١٢- القول الثاني عشر: أنَّ الإعجاز يرجع إلى وجوه متعددة: من جهة اللفظ، ومن جهة النظم، ومن جهة البلاغة في دلالة اللفظ على المعنى، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الله تعالى وأسمائه وصفاته وملائكته وغير ذلك، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب الماضي وعن الغيب المستقبل، ومن جهة ما أخبر به عن المعاد، ومن جهة ما بين فيه من الدلائل اليقينية والأقيسة العقلية التي هي الأمثال المضروبة، قال به ابن تيمية [١٦]، [١٧].

---

[١٠] ينظر: إعجاز القرآن للباقلاني (ص٣٥)، وذكره الزركشي عنه في البرهان (٢/٢٣٠)، وكذا السيوطي في الإتقان (٢/٢٤٢).

[١١] ينظر: مفتاح العلوم للسكاكي (٥١٢)، وذكره الزركشي عنه في البرهان (٢/٢٣١)، وكذا السيوطي في الإتقان (٢/٢٤٦).

[١٢] حازم بن محمد بن حسن الأنصاري القرطاجني، أبو الحسن، ولد سنة (٦٠٨هـ)، شيخ البلاغة والأدب، ومن حفَّاظ لغات العرب وأشعارها، من مصنفاته: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، وكتاب في القوافي، وقصيدة في النحو، مات سنة (٦٨٤هـ)، ينظر: بغية الوعاة (١/٤٩١)، وشذرات الذهب (٧/٦٧٦).

[١٣] ينظر: منهاج البلغاء لحازم القرطاجني (ص٣٨٩)، وذكره الزركشي عنه في البرهان (٢/٢٣٢)، وكذا السيوطي في الإتقان (٢/٢٤٣).

[١٤] أحمد بن محمد بن إبراهيم الخطابي البستي، أبو سليمان، الإمام، العلاَّمة، المفيد، المحدِّث، الرحال، من تصانيفه: شرح البخاري، ومعالم السنن، وغريب الحديث، وشرح الأسماء الحسنى، مات سنة (٣٨٨هـ)، ينظر: تذكرة الحفاظ (٣/١٠١٩)، وطبقات الحفاظ (٤٠٤).

[١٥] بيان إعجاز القرآن للخطابي (٢٤, ٦٤).

[١٦] ينظر: الجواب الصحيح (٥/٤٢٨)، انظر هذه الأقوال في البرهان في علوم القرآن للزركشي.

[١٧] ومن الإمكان أن نجمع الأقوال جميعًا في أربعة وجوه كما بيَّن الشيخ دراز، ووضح د. مصطفى مسلم في مباحث إعجاز القرآن، وهي:
أولًا: الإعجاز البياني، ويتضمن فصاحته، ونظمه وتناسقه، وأسلوبه الفريد.
ثانيًا: الإعجاز العلمي (التجريبي)، من بدء الكون وخلق الإنسان والسماوات والأرض، والجبال والبحار ...إلخ.
ثالثًا: الإعجاز التشريعي، من حيث العقيدة والشريعة والأخلاق.

من كتبوا في الإعجاز:

نظم القرآن للجاحظ٢٥٥هـ مفقود.

ويعتبر الجاحظ أول من كتب في إعجاز القرآن، ورد على القول بالصرفة مع أنه معتزلي، ونقول ذلك لأن واصل بن عطاء مؤسس الاعتزال هو من قال بالصرفة.

ثم جاء العلماء بعد الجاحظ يكتبون في محاسن النظم القرآني؛ مثل السجستاني ٢٣٠هـ في كتابه نظم القرآن، ثم البلخي ٣٦٢هـت في كتابه نظم القرآن.

إعجاز القرآن أبو عبدالله محمد بن يزيد الواسطي ٣٠٦هـ مفقود، وهو أول من ألَّف كتابًا يحمل هذا الاسم.

النكت في إعجاز القرآن للرماني أبي عيسى علي بن عيسى ٣٨٤هـ.

تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ٢٧٦هـ، وهو إمام السنة في وقته، تصدى للطاعنين في القرآن وأفحمهم.

بيان إعجاز القرآن للخطابي ٣٨٨هـ، وهو من علماء السنة والجماعة ومؤلفاته رائعة ومتميزة، كتب بيانه، وأتى بآراء السابقين، ثم زاد عليها وأضاف إضافات طيبة.

إعجاز القرآن للباقلاني ٤٠٣هـ.

دلائل الإعجاز، وأسرار البلاغة، الرسالة الشافية لعبدالقاهر الجرجاني ٤٧١هـ.

معترك الأقران في إعجاز القرآن للسيوطي ٩١١هـ.

وممن تحدث عن إعجاز القرآن عند تفسيرهم لآيات التحدي أبو حيان في البحر المحيط، وأبو السعود في إرشاد العقل السليم، والشوكاني في فتح القدير، وروح البيان لإسماعيل حقي١١٢٧هـ، والقاسمي في محاسن التأويل.

ومن المفسرين مَن خصَّص في مقدماتهم بابًا لبيان إعجاز القرآن؛ مثل: ابن عطية في المحرر الوجيز، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن، والماوردي في النكت والعيون، والآلوسي في تفسيره روح المعاني، والطاهر ابن عاشور في التحرير والتنوير، ورشيد رضا في تفسيره المنار.

أما من جعله مبحثًا في كتب علوم القرآن، فكثير على سبيل المثال: الزركشي في البرهان، والسيوطي في الإتقان، والتيسير في قواعد التفسير للكافيجي ٧٨٨هـ، وفنون الأفنان لابن الجوزي، والزرقاني ١٣٦٧هـ في مناهل العرفان، ومحمد حسين الذهبي ١٩٧٧ كتب في إعجاز القرآن في التفسير والمفسرون.

ومن كتب في إعجاز القرآن من المعاصرين:

مصطفى صادق الرافعي ١٣٥٦هـ في إعجاز القرآن والبلاغة النبوية.

محمد عبدالله دراز ١٣٧٧هـ في النبأ العظيم، وتكلم في كتابه عن ثلاثة أوجه من الإعجاز: اللغوي والعلمي والتشريعي.

رابعًا: الإعجاز الغيبي، من حيث الماضي والحاضر والمستقبل.

فمنذ عهد الكتابة والعلماء يتبارون ويتنافسون في إخراج الدرر واليواقيت من كتاب ربنا المجيد؛ تنفيذًا لقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾ [النساء: ٨٢].

وهذا علم من الأعلام، إنه شيخ الإسلام ابن كمال باشا لَحِقَ بالركب، فكتب في الإعجاز وإليك نص رسالته:

مع النص المحقق:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل كلامًا بلاغته معجزة، والصلاة على محمد صار المنكرين عن معارضته عاجزة، أما بعد:

فهذه رسالة معمولة في تحقيق أن القرآن معجز، وتصديق من قال: إن إعجازه ببلاغته.

فنقول من الله التوفيق: المعجزة [١٨] لا بد فيها من إعجاز المنكر، فإن كان ما أتى به المتحدي صادرًا كان عنه، كإخباره عن الغيب أو ظاهرًا على يده.

غير صادر عنه كالكلام المنزل على نبينا عليه السلام خارجًا عن طوق البشر، كما هو المختار من جملة ما قيل فيه، فالإعجاز في إتيان المتحدَى به، وإن لم يكن خارجًا عنه كما هو رأي أصحاب الصرفة[١٩] في حقه بالإعجاز في منع المنكرين عن الإتيان بمثله، وذلك المنع خارق للعادة.

فالإعجاز لا يخلو عن خرق عادة، والإعجاز حقيقة إنما هو في الثاني، وأما الأول فالمتحقق فيه إظهار العجز لا الإعجاز، وبالجملة فالمعجزة لا بد فيها من خرق العادة، وأما ما تحدى به، فلا يلزم أن يكون من خوارق العادات، وقد قضينا حق المقام في تحقيق هذا الكلام في بعض تعليقاتنا، وإذا تقرر هذا فتقول القرآن معجز؛ لأنه عليه السلام قد تحدى به، ولم يُعارَض، فكان معجزًا سواء كان عدم المعارضة مع القدرة عليها أو بدونها، أما أنه تحدى به فقد تواتر بحيث لم يبق فيه شبهة، وآيات التحدي كثيرة نزل أولًا: قوله تعالى: ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ ﴾ [الطور: ٣٤]، فكان التحدي بكل القرآن في ذلك الفرقان، فلما ظهر عجزهم عنه، نزل قوله تعالى: ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ ﴾ [هود: ١٣]، فتحداهم بعشر سور، ثم لَما ظهر عجزهم عنها أيضًا نزل قوله تعالى: ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ﴾ [البقرة: ٢٣]، فتحداهم بمقدار سورة منه، فلما ظهر عجزهم عنه أيضًا لزمتهم الحجة لزومًا واضحًا، وانقطعوا انقطاعًا فاضحًا، وبهذا التفصيل تبيَّن أن حق الضمير في مثله أن يرجع إلى المنَزّل لا إلى المنزل

---

(١٨) المعجزة هي الأمر الخارق للعادة الخارج عن سنة الله في خلقه الذي يظهره الله على يد مُدَّعي النبوة؛ تصديقًا له في دعواه، وتأييدًا له في رسالته، مقرونًا بالتحدِّي لأُمته، ومطالبتهم أن يأتوا بمثله، فإذا عجزوا كان ذلك آية من الله تعالى على اختياره إيَّاه، وإرساله إليهم بشريعته؛ مذكرة التوحيد عبد الرزاق عفيفي ص٥٨.

(١٩) الصرفة: أي صرف الهمم عن المعارضة (أي معارضة القرآن الكريم)، بيان إعجاز القرآن للخطابي ص٢٢، والنكت في إعجاز القرآن للرماني المعتزلي، ص١١٠.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عليه؛ لِما فيه من التضييق في باب التحدي ومقتضى التنزل من الكل إلى العشر، ومن العشر إلى الواحد التوسيع فيه، وظل معنى (من مثله) ممن على حالة من كونه أميًّا لم يقرأ الكتب ولم يتعلم العلوم، ولا تأثير لتلك الحال إذا كان التحدي بمقدار أقصر سورة منه، وأما الذي ذكره الإمام البيضاوي [٢٠] من أنه معجز في نفسه لا بالنسبة إليه عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ [الإسراء: ٨٨][٢١]، فلا وجه له؛ لأن التحدي بهذا ليس بكل القرآن، بل ببعض منه، فلا يتم التقريب أو لا ينطبق التعليل المعلل فتأمَّل، وأما أنه لم يعارض، فلأنه لو عورض لشاع لتوفر الدواعي إلى نقله، وعدم الصارف عنه، والعلم بذلك قطعي كسائر العاديات لا يقدح فيه احتمال أنهم عارضوا، ولم ينقل إلينا لمانع كعدم المبالاة وقلة الالتفات والاشتغال بالمهمات.

وأما عدم توقف ثبوت الإعجاز بعد تمام المقدمتين المذكورتين على مقدمة أخرى، وهي أن يكون عدم معارضتهم لعجزهم عنها إلا ظاهر من قولنا، سواء كان عدم المعارضة مع القدرة عليها أو بدونها، فلما ستنعق أن الصرفة أحد وجوه الإعجاز القرآني وأحد احتمالها على تحقق القدرة /١/ على المعارضة، وبهذا التفصيل تبيَّن أن الفاضل التفتازاني[٢٢] لم يصب في زعمه توقف ثبوت الإعجاز القرآني على المقدمة الثالثة المذكورة، كما هو الظاهر من مساق كلامه في هذا المقام؛ حيث قال في شرحه للمقاصد:

أما المقام الأول: فهو أنه عليه السلام تحدى بالقرآن ودعا إلى الإتيان بسورة من مثله مصاقع البلغاء والفصحاء من العرب العرباء مع كثرتهم كثرة رمال الدهماء، وحصى البطحاء وشهرتهم بغاية العصبية ولحمية الجاهلية، وتهالكهم على المباهاة والمباراة والدفاع عن الأحساب وركوب الشطط في هذا الباب، فعجزوا حتى آثروا المقارعة على المعارضة وبذلوا المهج والأرواح دون المدافعة. فلو قدروا المعارضة لعارضوا ولو عارضوا لنقل إلينا؛ لتوفر الدواعي وعدم الصارف إلى هنا كلامه [٢٣].

---

[٢٠] هو العلامة المفسِّر قاضي القضاة، ناصر الدين، أبو الخير (وقيل أبو سعيد) عبدالله بن عمر بن علي البيضاوي الشيرازي، الشافعي، كان إمامًا علَّامة، عارفًا بالفقه والأصلين والعربية والمنطق، نظَّارًا صالحًا، متعبِّدًا، شافعيًّا، انظر: بغية الوعاة للسيوطي ٢/٥٠(١٤٠٦)، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ١٥٧/٨، وطبقات المفسرين للداوودي، ص١٠٢.

[٢١] تفسير البيضاوي أنوار التنزيل وأسرار التأويل ٥٧/١.

[٢٢] هو مَسْعُود بن عمربن عبدالله الشيخ سعد الدين التَّفْتَازَانِي الْعَلامَة الْكَبِير الإمام العلامة، عالم بالنحو والتصريف والمعاني والبيان والأصلين والمنطق وغيرها، شافعي، قال ابن حجر: ولد سنة ثنتي عشرة وسبعمائة، وأخذ عن القطب والعضد، وتقدم في الفنون، واشتهر ذكره، وطار صيته، وانتفع الناس بتصانيفه، صَاحب شرحي التَّلْخِيص وَشرح العقائد فِي أصُول الدين، مات بسمرقند سنة إحدى وتسعين وسبعمائة؛ الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (٦/ ١١٢)، وبغية الوعاة ٢/٢٨٥(١٩٩٢)، وطبقات المفسرين ٢/٣١٩(٦٣٠).

[٢٣] شرح المقاصد في علم الكلام ١٨٣/٢.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

فأورد في أثناء إعجاز القرآن ما يقال في دفع احتمال أن يكون وجه إعجازه على ما ذكره الأستاذ والنظام[٢٤] من أصحاب الصرفة، فخلط بين الكلامين في المقامين، وتبيَّن أيضًا ما في قول صاحب المواقف [٢٥].

أما أنه - أي حين - إذا تحدى به ولم يعارض يكون معجزًا، فقد مر؛ أي فيما سلف من بيان حقيقة المعجزة وشرائطها من القصور، لما عرفت أن ما أسلفه من البيان لا يفي في تمام التقريب، بل يتبادر منه إلى الوهم التوقف على المقدمة الثالثة، بناءً على أن من جملة الشرائط السالفة بيانها تعذر المعارضة.

اعلم أن المسلمين بعدما اتفقوا على أن القرآن الكريم معجز عظيم قد اختلفوا في وجه إعجازه، فمنهم من قال: إنه ما اشتمل عليه من النظم الغريب والترتيب العجيب والأسلوب المخالف، لما استنبط بلغاء العرب من الأساليب في مطالعه ومقاطعه ومفاصله وفواصله، وهذا مذهب بعض المعتزلة.

ومنهم قال: إنه اشتمل عليه من البلاغة التي تقاصرت عنها سائر ضروب البلاغات، وهذا قول الجاحظ [٢٦] من المعتزلة، وعليه المحققون من أهل العربية، ومنها مقدمة لا بد من تقريرنا وبسط الكلام فيها، وهي: أن أصل البلاغة في القرآن متفق عليه لا ينكره من له أدنى تمييز ومعرفة بضاعة صياغة الكلام، إنما الخلاف في كونه في الدرجة العالية غير المعتادة، والجاحظ ومن حذا حذوه أثبتوا له هذا الكون وخالفهم الآخرون [٢٧].

وأما كونه في غاية القصوى من المراتب الممكنة للبلاغة، فلا حاجة للمثبتين إعجازه من جهة البلاغة إلى ادِّعائه، ولا سبيل لهم إلى إثباته.

قال صاحب المواقف: وهل رُتب البلاغة متناهية، والحق أن الموجود منها متناه دون الممكن من مراتبها [٢٨]، ومن هذا اتضح عدم إصابة الفاضل التفتازاني في تقرير الكلام في هذا المقام؛ حيث قال في شرحه المقاصد: وأما المقام

---

[٢٤] هو أبو إسحاق النظام البصري المتكلم المعتزلي إبراهيم بن سيار بن هانئ البصري المعروف بالنظام بالظاء المعجمة المشددة، قالت المعتزلة: إنما لقِّب بذلك لحسن كلامه نظمًا ونثرًا، وقال غيرهم: إنما سُمي بذلك؛ لأنه كان ينظم الخرز بسوق البصرة ويبيعها، قال الذهبي في تاريخ الإسلام ٧٣٥/٥: ذو الضلال والإجرام، طالع كلام الفلاسفة فخلطه بكلام المعتزلة، وتكلم في القدر، وانفرد بمسائل، مات سنة ٢٢١-٢٣٠هـ؛ انظر: الوافي بالوفيات ١٢/٦، وتوضيح المشتبه ٩٧/٩، ولسان الميزان ٢٩٥/١(١٦٠).

[٢٥] هو أبو الفضل عضد الدين عبدالرحمن بن أحمد بن عبدالغفار الإيجي الفارسي يُعرف بالمطرزي القاضي، قاضي القضاة كان إمامًا في المعقولات عارفًا بالأصلين والمعاني والبيان والنحو مشاركًا في الفقه توفي مسجونًا بقلعة دريميان سنة ست وخمسين وسبعمائة؛ انظر ترجمته في: معجم الآداب في معجم الألقاب ٤١١/١(٦٣٤)، وطبقات الشافعية الكبرى للسبكي ٤٧/١٠(١٣٦٩)، والسلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ٢١٧/٤، وطبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٢٧/٣(٥٩٤)، والدرر الكامنة لابن حجر ١١٠/٣(٢٢٧٨).

[٢٦] هو العَلاَّمَةُ المتَبَحِّرُ، ذُوْ الفُنُوْنَ، أَبُو عُثْمَانَ عَمْرُو بنُ بَحْرِ بنِ مَحْبُوْبٍ البَصْرِيُّ، المعْتَزِلِيُّ، صَاحِبُ التَّصَانِيْفِ، أَخَذَ عَنِ: النَّظَّامِ، كان من بحور العلم، وتصانيفه كثيرة جدًّا، مات سنة خمس وخمسين ومائتين، سير أعلام النبلاء ٥٢٧/١١.

[٢٧] قالوا: البلاغة التعبير باللفظ الرائع عن المعنى الصحيح بلا زيادة ولا نقصان في البيان المواقف ٣٧٧/٣.

[٢٨] المواقف ٣٧٧/٣، ٣٩٠/٣.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الثاني، فالجمهور على أن إعجاز القرآن لكونه في الطبقة العليا من الفصاحة، والدرجة القصوى من البلاغة، على ما يعرفه فصحاء العرب بسَليقتهم، وعلماء الفرق بمهارتهم في فن البيان، وإحاطتهم بأساليب الكلام [٢٩].

ثم إنه كما لم يصب /٢/ في نسبته إلى الجمهور الأمر المذكور كذلك لم يصب في نسبته معرفة ذلك الأمر إلى فصحاء العرب وعلماء البلاغة، فإن المعلوم لهم بلوغه إلى حد من البلاغة لا يمكن للبشر الوصول إليه، وأما إن ذلك الحد آخر حدود البلاغة لهم بمعزل عنه ومن هنا انكشف لك ستره، وهو أن لحد الإعجاز من جهة البلاغة عرضًا على ما أفصح عنه العلامة السكاكي[٣٠]، حيث قال في المفتاح: إن البلاغة تتزايد إلى أن تبلغ حد الإعجاز[٣١]، وهو الطرف الأعلى وما يقرب منه [٣٢] إلا أنه لم يصب في إثباته المنتهى لمراتب البلاغة، لما عرفت أنه ما من مرتبة في البلاغة إلا ويمكن أن يوجد فوقها مرتبة أخرى، وقد استولى الشريف الفاضل [٣٣] على هذا؛ حيث قال في شرح قول صاحب المواقف: دون الممكن ومن مراتبها، فإنه غير متناه أو لا يتعذر وجود الألفاظ هي أفصح من الواقعة وأشد مطابقة لمعانيها، فيكون أعلى رتبة في البلاغة، وهكذا إلى ما لا يتناهى، والعجب أن ذلك الفاضل مع وقوفه على هذا المعنى كيف أتى في شرحه للمفتاح بما يفصح عن خلافه؛ حيث قال: وهذه المرتبة أي المرتبة التي يعجز البشر عن الإتيان بمثلها يشتمل على شيئين:

أحدهما: الطرف الأعلى من البلاغة أعني ما ينتهي إليه البلاغة، ولا يتصور تجاوزنا.

والثاني: ما يقرب من الطرف الأعلى أعني المراتب العلية التي يتقاصر العقول البشرية عنها أيضًا، ألا ترى أن آيات القرآن المجيد بأسرها في مرتبة الإعجاز مع كونها متفاوتة في طبقات البلاغة ولقد أحسن من قال:

در بيان ودر فصاحت كي بود يكسان سخن كرجه كوينده بود جون

جاحظ جون اصمعي در كلام ايزد بيجون

---

[٢٩] شرح المقاصد في علم الكلام ١٨٤/٢.

[٣٠] هو يوسف بن أبي بكر بن محمد أبو يعقوب السكاكي، من أهل خوارزم، علامة إمام في العربية والمعاني والبيان والأدب والعروض والشعر، متكلم فقيه متفنن في علوم شتى، ولد سنة أربع وخمسين وخمسمائة، وصنف «مفتاح العلوم»، مات سنة ست وعشرين وست مائة؛ معجم الأدباء ٢٨٤٦/٦(١٢٥٥)، وتاريخ الإسلام ٨٢٨/١٣(٣٨٣)، وتاج التراجم لابن قطلوبغا ص٣١٧، وبغية الوعاة ٣٦٤/٢(٢٢٠٣)، والأعلام للزركلي ٢٢٢/٨.

[٣١] قال عبدالمتعال الصعيدي في بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة (١/ ٢٨): حد الإعجاز: منتهاه؛ لأن الحد في اللغة: منتهى الشيء، وما يقرب من الإعجاز هو ما دونه من مراتب الإعجاز؛ لأن الحق أن القرآن متفاوت الإعجاز، وليس كل آياته في درجة واحدة من البلاغة، وبهذا يكون قوله: "وما يقرب منه" معطوفًا على "حد الإعجاز"، وقيل: إنه معطوف على قوله: "وهو", على معنى أن حد الإعجاز هو الطرف الأعلى وما يقرب منه كما قال السكاكي، ولكن حمل ما هنا عليه لا يخلو من تكلف.

[٣٢] مفتاح العلوم ٤١٦/١.

[٣٣] أي التفتازاني.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

كه وحي منزلست كي بود تبت يدا مانند يا أرض ابلعي[٣٤].

فإن قوله أعني ما ينتهي إليه البلاغة، ولا يتصور تجاوزنا صريح في خلاف ما نص عليه في شرحه للمواقف، ثم إنه لم يصب في قوله: (مع كونها متفاوتة في طبقات البلاغة)؛ لأن التفاوت في باب البلاغة إنما يكون بارتفاع شأن الكلام وانحطاط فيها، وذلك بحسب مصادفته المقام بما يليق به، من الاعتبارات التي تقتضيها، فما كان مصادفته إياه بالوجه المذكور أتم، فشأنه في البلاغة أعلى، وهذا التفاوت لا يوجد في آيات القرآن المجيد؛ لأن مرجعه إلى القصور في المتكلم، لعدم اقتداره على إحاطة جميع ما لا يليق بالمقام من الاعتبارات المناسبة له، أو على إتيانها بتمامها، نعم فيها تفاوت في باب الحسن والقبول؛ لأن ارتفاع شأن الكلام وانحطاطه فيه بحسب اشتماله على الخواص والمزايا، فالذي دائرة اشتماله عليهما أوسع شأنه في باب الحسن والقبول أرفع، فالتفاوت فيه يوجد في الكلام المعجز كما يوجد في غيره؛ لأنه قد يرجع إلى القصور في المقام؛ حيث لا يتحمل ما تحمله مقام وكلام آخر فوقه من الخواص والمزايا بخلاف التفاوت السابق ذكره، فإنه مخصوص بكلام البشر وغيره ممن يجوز في شأنه /٣/ القصور، لا يوجد في كلام الله تعالى لما عرفت أتى مرجعه إلى القصور في المتكلم والتفاوت بين قوله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [المسد: ١]، وقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ﴾ [هود: ٤٤]، ما نبه عليه الحكم الأنور في الشعر المنقول فيما سبق وإن لم يتنبه له الشريف الفاضل، والفرق بين الارتفاقين قبيل التفاوت الفاشي من قصور المقام على المذكورين في ذينك التفاوتين، قد ذهب على العلامة السكاكي فذهب في "المفتاح" إلى ما ذهب ولم يتنبه له الناظرون في كلامه، وقد تعرضنا لهذا في "إصلاح المفتاح"، وكشفنا عنه الغطاء في شرحه بعون الملك الفتاح.

ومنهم من قال: إنه مجموع الأمرين أي النظم القريب، وكونه في الدرجة العالية من البلاغة الخارجة عن طوق البشر، وهذا القول منسوب إلى القاضي الباقلاني[٣٥]، ومنهم من قال: إنه مشتمل عليه من الإخبار عن الغيب مطابقًا لما هو الواقع بعد ذلك؛ كما في قوله تعالى: ﴿ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴾ [الروم: ٣][٣٦]، وإنما قيدنا الواقع بقولنا بعد ذلك؛ لأن الإخبار عن الغيب الواقع قبله يحتمل أن يكون بواسطة الجن، فلا يصح وجها للإعجاز.

---

[٣٤] روح البيان إسماعيل حقي ٢/٢٤٤، روح المعاني الآلوسي ٦/٢٦١.

[٣٥] إعجاز القران للباقلاني ص ٣٥، وذكره الإيجي في المواقف ٣/٣٩٠ بتصرف يسير، وعنه البرهان للزركشي ٢/٢٣٠، والإتقان للسيوطي ٢/٢٤٢.

[٣٦] المواقف ٣/٣٩١.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

قال الآمدي[٣٧] في أبكار الأفكار: وليس المعجز نفس الإخبار عن الغيب ولا نفس وقوع المخبر عنه، إذا كان من الأمور العادية، بل المعجز من ذلك علمه بالغيب الذي دل عليه المخبر عنه [٣٨].

ومنهم من قال: إنه عدم اختلافه وتناقضه مع ما فيه من الطول والامتداد، وتمسكوا في ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢][٣٩]، وكان هذا القائل غافلًا عن وقوع التحدي بمقدار سورة عنه، أو جاهل بأن التحدي به يستلزم أن يوجد الإعجاز في كل بعض منه مقدار سورة الكوثر فتدبر، ثم إن دلالة الآية المذكورة على أنه كلام الله تعالى لا كلام غيره من المخلوقات، لما ذكر من أن فيه ما هو من خصائص كلامه تعالى، وأما إن جهة إعجازه تلك الخاصية فلا دلالة فيها عليه؛ لأن إعجازه أمر وكونه كلام الله تعالى أمر آخر، وقد أطنبنا الكلام في هذا المقام في بعض تعليقاتنا.

ومنهم من قال: إن إعجازه بالصرفة على معنى أن العرب كانت قادرة قبل البعثة على كلام مثل القرآن، لكن الله تعالى صرفهم عن المعارضة مع بقاء قدرتهم عليها أو بدونها على اختلاف الرأيين [٤٠].

قال الآمدي في أبكار الأفكار: وذهب الأكثرون كالأستاذ أبي إسحاق [٤١] والنظَّام، وبعض الشيعة وغيرهم – إلى أن العرب كانت قادرة على مثل كلام القرآن قبل البعثة، وإنه لا إعجاز في القرآن، وإنما المعجز صرف بلغاء العرب عن معارضته، إما بصرف دواعيهم كما قاله النظام والأستاذ أبو إسحاق، وإما بسلبهم العلوم التي لا بد منها في المعارضة؛ كما قال الشريف المرتضى [٤٢] من الشيعة [٤٣] إلى هنا كلامه، وبهذا /٤/ التفصيل تبيَّن الخلل في بيان الفاضل التفتازاني معنى الصرفة المنسوبة إلى النظام؛ حيث قال في شرحه للمفتاح وبالجملة في الكلام إشارة إلى

---

[٣٧] هو علي بن محمد بن سالم التغلبي، أبو الحسن، سيف الدين الآمدي، كان من أذكياء العالم ... ولم يكن له نظير في الأصول، والكلام، والمنطق (المتوفى: ٦٣١هـ)، الوافي بالوفيات للصفدي ٣٤١/٢١، ومرآة الزمان ٧٣/٤، والعبر في خبر من غبر للذهبي ١٢٤/٥، ونقض المنطق لابن تيمية ص١٥٦.

[٣٨] أبكار الأفكار في أصول الدين ٧٣/٤.

[٣٩] المواقف ٣٩١/٣.

[٤٠] المواقف ٣٩٢/٣ بتصرف، ومفتاح العلوم (٥١٢)، والبرهان للزركشي (٢٢٦/٢)، والإتقان (٢٤١/٢)، والزيادة والإحسان (٣٨٦/٦).

[٤١] وأبو إسحاق هو: إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران الإسفرائيني، الفقيه الشافعي المتكلم الأصولي، له تصانيف جليلة، توفي يوم عاشوراء سنة ٤١٨هـ؛ انظر: اللباب في تهذيب الأنساب لابن الأثير الجزري (٥٥/١)، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٢٨/١).

[٤٢] هو الشريف على بن الحسين بن موسى بن محمد بن موسى بن إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، (الشريف المرتضى، أبو القاسم) وُلد في رجب سنة ٣٥٥ هـ، ووَلي نقابة الطالبيين، له سبعة وثمانون مصنفًا؛ منها: إيقاظ البشر في القضاء والقدر، غرر الفرائد ودرر القلائد في المحاضرات، والذخيرة في الأصول، والشافي في الإمامة، وله أيضًا: ديوان شعر، وتوفي ببغداد في ٢٥ ربيع الأول سنة ٤٣٩ هـ؛ انظر: تاريخ بغداد ١١/ ٢٠٢، وفيات الأعيان ١/ ٤٣٣ وما بعدها، ولسان الميزان لابن حجر ٤/ ٢٢٣.

[٤٣] أبكار الأفكار في أصول الدين ٧٤/٤.

وجه إعجاز القرآن أنه من جنس البلاغة والفصاحة، وهو كونه في الطبقة العليا منهما، لا كما ذهب إليه النظَّام وجمع من المعتزلة: أن إعجازه بالصرفة، بمعنى أنه لم يكن معجزًا في نفسه، وأمكن للعرب أن يعارضوه إلا أن الله تعالى صرفهم عن ذلك وسلب علومهم به وقدرتهم عليه، لما عرفت أن الصرفة بهذا المعنى مذهب المرتضى لا مذهب النظام.

وقال الفاضل المذكور في شرحه للمقاصد: وذهب النظام وكثير من المعتزلة والمرتضى من الشيعة – إلى أن إعجازه بالصرفة، وهي: أن الله تعالى صرف (همم) [٤٤] المتحدين عن معارضته مع قدرتهم عليها، وذلك إما بسلب قدرتهم أو سلب دواعيهم، أو سلب العلوم التي لا بد منها في الإتيان بمثل القرآن، بمعنى أنها لم تكن حاصلة لهم، أو بمعنى أنها كانت حاصلة، فأزالها الله تعالى، وهذا هو المختار عند المرتضى [٤٥].

ولا يخفى ما فيه من الخلل، أما أولًا، فلأن ما ذكره بقوله: وذلك إما بسلبها، لا يصلح تفصيلًا؛ لما أجمله؛ لأنه شرط فيه وجود القدرة على المعارضة، وهي مفقودة في كل من شقى هذا التفصيل.

وأما ثانيًا، فلأن سلب العلوم التي لا بد منها في المعارضة، لا يصلح أن يكون مقابلًا سلب قدرتهم على المعارضة؛ إذ لا يتحقق القدرة عليها فيندرج تحت سلبها.

وأما ثالثًا، فلأن السلب بمعنى عدم الحصول ابتداءً، لا يصلح تفسيرًا للصرفة وهو بمعزل عن مراد القائلين بها.

وأما رابعًا، فلأن مذهب المرتضى إزالة القدرة بسلب العلوم التي لا بد منها في المعارضة، لا ما تعم منها، ومن إزالة الدواعي؛ إذ ينتظم ما ذكره المعنى الذي ذهب إليه الأستاذ والنظام، وقال الشريف الفاضل في شرحه للمفتاح [٤٦] وقد أشار بما ذكره إلى ما اختاره في آخر التكملة من أن وجه الإعجاز: هو أمر من جنس البلاغة والفصاحة، كما يجده أرباب الذوق، لا ما ذهب إليه بعضهم من الصرفة؛ أي صرف الله سبحانه دواعي العرب عن معارضته مع قدرتهم عليها[٤٧]، ولا يخفى ما فيه من القصور؛ لأن ما ذكره أحد المعنيين: معنى الصرفة والمقام مقام رد القدر المشترك بينهما، فكان حقه أن يذكر المعنيين الذين ذهب إلى كل منهما فرقة من أصحاب الصرفة، ثم قال الفاضل المذكور في الشرح المزبور: أو من وروده على أسلوب مباين لا أساليب كلامهم في خطبهم وإشعارهم، ولا سيما في مطالع السور ومقاطع الآي مثل يؤمنون يعلمون يفقهون، أو من سلامته مع طبع طوله جدًّا عن التناقض، أو من اشتماله على الغيوب، فهذه أقوال خمسة في وجه الإعجاز لا سادس لها [٤٨]، وأنت بعد ما أحطت بما قدمناه من

---

[٤٤] من المطبوع.

[٤٥] شرح المقاصد في علم الكلام ٢/١٨٤.

[٤٦] مفتاح العلوم ١/٥١٢.

[٤٧] ذكر كلام التفتازاني الطاهر ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير المقدمة العاشرة ١/١٠٨.

[٤٨] تفسير التحرير والتنوير المقدمة العاشرة ١/١٠٨.

التفصيل وقفت على أن قوله: "لا سادس لها"، ليس بصحيح، فإن قول القاضي أبي بكر سادس لها، على أن هنا أقوالًا أُخر ذكرها /٥/ الآمدي؛ حيث قال في أبكار الأفكار:

ومنهم من قال: وجه الإعجاز فيه موافقته لقضية العقل في دقيق المعاني.

ومنهم من قال: وجه الإعجاز فيه إنما هو حذفه.

ومنهم من قال: وجه الإعجاز فيه كونه دالًّا على الكلام القديم [٤٩].

قال الفاضل المذكور في شرحه للمواقف عند تفصيل القول بالصرفة: فقال الأستاذ أبو إسحاق منا والنظام من المعتزلة: صرفهم الله تعالى عنها مع قدرتهم عليها، وذلك بأن صرف دواعيهم إليها مع كونهم مجبولين عليها، خصوصًا عند توفر الأسباب الداعية في حقهم، كالتقريع بالعجز والاستنزال عن الرياسات، والتكليف بالانقياد، فهذا الصرف خارق للعادة فيكون معجزًا.

وقال المرتضى من الشيعة: بل صرفهم بأن سلبهم العلوم التي يحتاج إليها في المعارضة، بمعنى أن المعارضة والإتيان بمثل القرآن، يحتاج إلى علوم يقتدر بها عليها، وكانت تلك العلوم حاصلة لهم لكنه تعالى سلبها بالصرفة عنهم، فلم يبق لهم قدرة عليها[٥٠] إلى هنا كلامه.

وهذا التفصيل كالاعتراف بالتقصير في بيان القول الواقع في شرحه للمفتاح، وقد استدل على بطلان الصرفة بوجوه:

الأول: إن فصحاء العرب إنما كانوا يتعجبون من حسن نظمه وبلاغته وسلاسته في جزالته ويرفضون رؤوسهم عند سماع قوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي ﴾ [هود: ٤٤]، الآية لذلك، لا لعدم تأدِّي المعارضة مع سهولتها في نفسها.

الثاني: أنه لو قصد الإعجاز بالصرفة، لكان المناسب ترك الاعتناء ببلاغته وعلو طبقته؛ لأنه كلما كان أنزل في البلاغة، وأدخل في الركاكة، كان عدم تيسر المعارضة أبلغ في خرق العادة.

الثالث: قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨]، فإن ذكر الاجتماع والاستظهار بالغير في مقام التحدي، إنما يحسن فيما لا يكون مقدورًا للبعض، ويتوهم كونه مقدورًا للكل، فيقصد نفي ذلك[٥١]، كذا قال الفاضل التفتازاني في شرحه للمقاصد.

---

(٤٩) أبكار الأفكار ٤/٧٣.

(٥٠) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية للرافعي، ص١٠١.

(٥١) شرح المقاصد ٢/١٨٥.

ولا يذهب عليك أن الوجه الأول كما يبطل القول بالصرفة، ويبطل سائره غير القول بالبلاغة في الطبقة العالية الخارجة عن طوق البشر، بل في الحقيقة دليل القائلين بها.

وأن الوجه الثاني والثالث، إنما يبطل الصرفة على أحد الاحتمالين، وهو الذي اختاره الأستاذ والنظام.

ثم قال الفاضل المذكور في الشرح المزبور: فإن قيل لو كان القصد على الإعجاز بالبلاغة، لكان ينبغي أن يؤتى بالكل في أعلى الطبقات، لكونه أبلغ في خرق العادة، والمذهب أن الله تعالى قادر على أن يأتي بما هو أفصح مما أتى به وأبلغ، وإن بعض الآيات في باب البلاغة أعلى وأرفع؛ كقوله تعالى: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ ﴾ [هود: ٤٤]، بالنسبة إلى سورة الكافرين مثلا، قلنا: هذا أولى في الغرض، وأوضح في المقصود، بمنزلة صانع يبرز في مصنوعاته ما ليس غاية مقدوره أو نهاية ميسوره، ثم يدعو جماهير الحذاق في الصناعة، إلى أن يأتوا بما يوازي أو يداني دون ما ألقاه وأهون مما أبداه[٥٢]؛ انتهى.

ولقد أخطأ في السؤال /٦/ وما أصاب في الجواب، أما الأول، فلأن مبنى الشرطية القائلة لو كان القصد إلى الإعجاز بالبلاغة، لكان ينبغي أن يؤتى بالكل في أعلى الطبقات، على إمكان وجود كلام في أعلى الطبقات، وقد عرفت أن ذلك غير ممكن، لِما تقرَّر فيما سبق أن المراتب الممكنة في البلاغة غير متناهية.

ومن ها هنا ظهر خلل من وجه آخر في الكلام المذكور؛ حيث كان المفهوم منه أن يكون بعض القرآن في أعلى طبقات البلاغة، وأيضًا قوله: "وأن بعض الآيات في باب البلاغة أعلى وأرفع"، ليس بصحيح، لما عرفت أيضًا فيما تقدم أن الآيات القرآنية سواسية في باب البلاغة لا تفاوت فيها من تلك الجهة، إنما التفاوت بينها من جهة الاشتمال على الخواص والمزايا، وهذا التفاوت في باب الحسن والقبول، وأما الثاني، فلأن التمثيل لا يطابق الممثل؛ لأن الدعوة والتحدي من رسول الله عليه السلام، والقرآن كلام الله تعالى، لا كلامه، فلم يكن واحد منهما بمنزلة الصانع المذكور، ثم إنك بعد ما أحطت جوانب المقال في هذا المقام، وعلمت ما هو المختار من القيل والقال، عرفت ما في كلام الإمام البيضاوي في ديباجة تفسيره وهو قوله: "فتحدى بأقصر سورة مصاقع الخطباء من العرب العرباء، فلم يجد به قديرًا، وأفحم من تصدى لمعارضته من فصحاء عدنان، وبلغاء قحطان حتى حسبوا أنهم سحروا تسحيرًا"[٥٣]، من الخلل؛ لأن الظاهر من ختام كلامه أن لا يكون تلك البلغاء عارفين ببلوغ القرآن إلى الطبقة العالية من البلاغة الخارجة عن طوق البشر، بل الظاهر منه أن يكونوا من القائلين بالصرفة، فلا يناسب مساق الكلام؛ لأنه صريح في التحدي من جهة البلاغة، ولا يصح غاية، لما في سياقه من المبالغة من جهتها، وبالجملة قد بالغ في بيان الإفحام، لكن لأعلى وجه يخرج مدحًا للقرآن، كما هو مقتضى المقام، بل نقول: إنه غير مطابق للواقع على ما أفصح عنه الشيخ في دلائل الإعجاز؛ حيث قال عند استدلاله على بطلان القول بالصرفة: ومما يلزمهم على أصل المقالة أن العرب لو كانت منعت منزلة من الفصاحة قد كانوا عليها يعرفون ذلك من أنفسهم،

---

[٥٢] شرح المقاصد٢ /١٨٥.

[٥٣] تفسير البيضاوي ١/٢٣.

ولو عرفوه لكان يكون قد جاء عنهم ذكر ذلك، ولكانوا قد قالوا للنبي عليه السلام: "إنا كنا نستطيع قبل هذا الذي جئتنا به، ولكنك قد سحرتنا واحتلت في شيء حال بيننا وبينه، فقد نسبوه إلى السحر في كثير من الأمور، كما لا يخفى، وكان أقل ما يجب في ذلك أن يتذاكروه فيما بينهم، ويشكوه البعض إلى البعض، ويقولوا: مالنا قد نقصنا في قرائحنا، وقد حدث كلول في أذهاننا، ففي أن لم يرو، ولم يذكر أنه كان منهم قول في هذا المعنى، لا ما قل ولا ما كثر، دليل على أنه قول فاسد، ورأي ليس من آراء ذوي التحصيل[٥٤]، إلى هنا كلامه بعبارته والله أعلم.

---

[٥٤] دلائل الإعجاز عبدالقاهر الجرجاني ٦١٤/١.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ثبت المراجع:

- البرهان في علوم القرآن: للإمام بدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار عالم الكتب، ١٤٢٤هـ.

- أبكار الأفكار في أصول الدين، علي بن محمد بن سالم التغلبي، أبو الحسن، سيف الدين الآمدي (المتوفى: ٦٣١هـ)، تحقيق: أ. د. أحمد محمد المهدي، دار الكتب والوثائق القومية – القاهرة، الطبعة: الثانية / ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٤م.

- الإتقان في علوم القرآن: للحافظ جلال الدين السيوطي، تحقيق فواز أحمد زملي، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت ١٤١٩هـ.

- إعجاز القرآن لأبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط٥، دار المعارف، مصر، ١٩٩٧م.

إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق بن عبدالرزاق بن سعيد بن أحمد بن عبدالقادر الرافعي (المتوفى: ١٣٥٦هـ)، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة الثامنة – ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٥م.

- الأعلام لخير الدين الزركلي، دار العلم، ط ١٢، بيروت، ١٩٩٧م.

- إنباء الغُمر بأبناء العمر في التاريخ لابن حجر العسقلاني، اعتنى به: د. محمد عبدالمعيد خان، دار الكتب العلمية، بيروت.

- إنباه الرواة على أنباه النحاة لجمال الدين القفطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ١٤٢٤هـ.

- أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)، تحقيق: محمد عبدالرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي — بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٨ هـ.

- البرهان في علوم القرآن للإمام بدر الدين الزركشي، تحقيق: د. يوسف مرعشلي وآخرين، ط٢– دار المعرفة، بيروت، ١٤١٥هـ.

- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، لعبدالمتعال الصعيدي (المتوفى: ١٣٩١هـ)، الناشر: مكتبة الآداب، الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م.

- بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، بيروت، ١٤٢٤ هـ.

- بيان إعجاز القرآن لأبي سليمان حمد محمد الخطابي، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، القاهرة.

- تاريخ بغداد أحمد بن علي، أبو بكر الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net
شبكة الألوكة

– تفسير أبي السعود "إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم"، لأبي السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث، بيروت.

– تفسير الألوسي "روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني" لمحمود الألوسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

– تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون، تونس، تفسير ابن عطية "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز"، للقاضي أبي محمد بن عطية الأندلسي، تحقيق: عبدالسلام محمد، ط١، دار الكتب العلمية بيروت،١٤١٣هـ.

– الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لأحمد بن عبدالحليم بن تيمية، تحقيق: د. علي حسن ناصر، ود. عبدالعزيز إبراهيم العسكر، ود. حمدان محمد، دار العاصمة، الرياض، ط ١٤١٤،١هـ.

– الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: ابن حجر العسقلاني، ط٢، بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد،١٣٩٦هـ.

– دلائل الإعجاز في علم المعاني، أبو بكر عبدالقاهر بن عبدالرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ)، تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر، مطبعة المدني بالقاهرة – دار المدني بجدة، الثالثة ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م.

– الزيادة والإحسان في علوم القرآن لابن عقيلة المكي، حُقِّقَ في رسائل جامعية قام بتدقيقها مجموعة بحوث الكتاب والسنة، ط١، دار مركز البحوث والدراسات، جامعة الشارقة، ١٤٢٧ هـ.

– شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، تحقيق: عبدالقادر الأرنؤوط ومحمود الأرنؤوط، ط١، دار ابن كثير، بيروت، ١٤٠٦هـ.

– الضوء اللامع لأهل القرن التاسع: لشمس الدين محمد بن عبدالرحمن السخاوي، دار الجيل، بيروت.

– طبقات الحفاظ: لجلال الدين السيوطي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ.

– طبقات الشافعية: لعبدالرحيم الإسنوي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ.

– طبقات الفقهاء الشافعية لابن قاضي شهبة، تحقيق، د. علي محمد عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

– طبقات المفسرين: لشمس الدين الداوودي، تحقيق: لجنة من العلماء، ط ١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٣هـ.

– طبقات المفسرين: للحافظ جلال الدين عبدالرحمن السيوطي، تحقيق: علي محمد عمر، ط١، مكتبة وهبة، ١٣٩٦هـ.

– غاية النهاية في طبقات القراء: لابن الجزري، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٧هـ.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

- الفصل في الملل والأهواء والنحل: لعلي بن أحمد بن سعيد، مكتبة الخانجي، القاهرة.

- كتاب المواقف، عضد الدين عبدالرحمن بن أحمد الإيجي، تحقيق د. عبدالرحمن عميرة، دار الجيل - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧.

- مباحث في إعجاز القرآن، د. مصطفى مسلم، دار القلم - دمشق، الثالثة، ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م.

- المجيد في إعجاز القرآن المجيد: لابن خطيب كمال الدين عبدالواحد الزملكاني، تحقيق: د. شعبان صلاح، ط٢، دار غريب، القاهرة، ٢٠٠٦م.

- معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران)، لعبدالرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، دار الكتب العلمية - بيروت — لبنان، الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.

- مفتاح العلوم: ليوسف بن محمد بن علي السكاكي، تعليق: نعيم زرزور، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٧هـ.

- النكت والعيون "تفسير الماوردي" لأبي الحسن علي بن محمد الماوردي، مكتبة المؤيد، الرياض.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: لشمس الدين أحمد بن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت.